ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٨ —

... ومضيت أعود ليلى مرة ثانية ، بعد أن قبّلت الصورة التى أدفع بهـا وحشة الليل فى بغداد ، وبعد أن قرأت الرسائل المعطرة التى وردت من مدينة ... وكذلك أعددت قلبى للرفق واللطف ، وأنا في عالم الطب كالبلبل فى عالم الأغاريد ، لا أطرب إلا بعد مناجاة الأحلام ، ولا يطرب إلا بعد أن تضوع من حوله أزواح الأزهار . فهل تعرف معنى ذلك تلك الانسانة التى بلغ بها العناد أن تصرح بأنها لن تفتضح في حبى إلا يوم يظهر أنهـا دفعتنى إلى الخلود ؟ رباه ! ماأصعب تكاليف الخلود ! ولـكن كيف ألقى ليلاى ؟

إننى أخافها أشد الخوف ؛ فقـد بدت لى فى المرة الماضية على جانب من الوعورة ، ولا يسعد عندى أن تكون حمقاء ، فان الجمال يورث أهله بعض خصال النزق والطيش ؛ وأنا والله على استعداد لمقابلة الشر بالشر ، فان رمتنى بالحمق رميتها بالجنون ، ولـكن ذلك لا يقع بدون جزاء ، فقد تفسد العلائق بين مصر والعراق

فراقك صعب ، سيدى ! كذلك قالت ليلى منذ ليال

فما الذى يمنع من الأدب ؟ وهل كُتب علىّ أن أظل دهرى شقيًّا لا أعرف غير الرجس ؟ مالى لا أجرب الحب العذرى مرة واحدة في حياتى ؟ مالى أحرم قلبى أطايب العفاف ؟ آمنت بالله ! وهل كنت فاسقاً حتى أفوه بمثل هذا القول ؟

إنك يا ربى تعلم كيف ابتدأت وكيف انتهيت . انك يا ربى تعلم أنى أشرف مخلوق سوّته يمناك ، مع استثناء الأنبياء ؛ ولـكنى طبيب جنى عليه الأدب فسار فى بقاع الأرض أنه من الفلسفين

* * *

كيف ألقى ليلى ؟ تلك هى النقطة ، كما يقول لافونتين !

ألقاها بالتجارب التى أفدتها فى باريس ، فقد وردت مدينة النور أول مرة فى سنة ١٩٢٧ وكنت سمعت أنها مدينة تموج بالهوى والفتون ، فكان أكبر همى أن أعيش فيها عيش المجانين بعد أن عانيت الأمرّين من عيش الجفاف فى شارع الحمزاوى وعطفة الجالية !

ودخلت السوربون ، سقاها الغيث وجعل الله لها لسان صدق فى الآخرين ، فكانت عيني لا تقع على الأساتذة ، وإنما كانت تقع على الطالبات ، وهنّ فى دروس الأدب أكثر من الطلاب . والفتيات هناك يفهمن وحى العيون ، وكان يتفق أن تلقانى فتاة بعد المحاضرة فتقول : من فضلك ياسيد ، هل عندك مذكرات عن دروس المسيو شامار ؟ فأجيب : نعم ، يا آنستى ! فتقول : هل تتفضل فتعيرنى إياها لأنسخها ثم أردها إليك ؟ فأقول : وهل لمثلى أن يرفض ما تطلب هاتان العينان ! فتنظر الفتاة إلىّ نظرة سخرية وتنصرف !

وحدث مرة أن قالت لى فتاة ريّا الجسم كأنها من دمياط : هل لك يا سيد أن تتفضل فتعيرنى مذكراتك عن دروس المسيو مورنيه ؟ فقلت : لك ذلك يا آنستى ، ولـكنى لن أعود إلى السوربون إلا بعـد يومين . فهل أستطيع أن أراكِ غداً عندى فى الساعة الخامسة لأقدم إليك المذكرات ؟ فأجابت بالقبول بعد أن استفهمتْ عن اسم الشارع ورقم البيت

وما كاد يحين الموعد حتى كانت المائدة مجهزة بأطيب ما تعرف فرنسا من ألوان الشراب . ثم مضت ثوان ودقائق وساعات ، ولم تحضر الفتاة ، عليها وعلى أمها اللعنات !

وفى ذات يوم قالت إحدى زميلاتى فى الدرس إنها تجيـد الرقص ، فقلت إنى لأحسن منه غير « الحنجلة » ، ورجوتها أن تعيننى على إتقان ذلك الفن الجميل ، فأجابت جواباً كله إغراء .

ولـكننى اشترطت أن يكون ذلك فى غرفتى حتى لا يعرف أهل باريس أننى رجل « غشيم »

وانتظرت ، ثم انتظرت ، ثم انتظرت ، ولم تحضر الراقصة الحسناء !

ولم تمض أسابيع حتى شاع فى جميع أروقة السوربون أنى فتى ماجن خليع ، فكنت ألقى أطيب التحيات ولا يجيبنى مجيب . والشيطان يشهد أنى كنت فى ذلك العهد أعظم مغفل عرفته باريس

ونظرت فرأيت فتياناً أقل منى فتوّة وجاذبية يعيشون فى

ظلال الحب عيش الملوك ، فعرفت أنهم يحسنون ما لا أحسن من فن الغرام ، وللغرام فنون

ولكن أين أذهب ؟ لقد ضاع حظى فى كلية الآداب ، فهل أذهب إلى كلية العلوم؟ وكيف وهى أيضا من السوربون ؟ فلم يبق إلا أن أذهب إلى كلية الطب لأقيم فيها تجارب الحب من جديد ، بعيداً عن جوّ الأراجيف الذى خلقته خلقاً بفضل الغفلة والجهل

وكانت فرصة عرفت فيها قيمة الشر فى خَلْق الرجال . فلولا الحب ما عرفت كلية الطب ؛ ولولا الطب ما شرفتنى الحكومة المصرية بمداواة ليلى المريضة فى العراق

أقول إنى ذهبت إلى كلية الطب بعد أن صقلتنى التجارب ، وبعد أن عرفت أن من العيب أن أخيب فى باريس وأنا شاعر سنتريس ؛ فلم تمض أيام حتى كنت فى تلك الكلية فتى الفتيان . وبيان ذلك أنى كنت أخفى عواطفى كل الإخفاء ، فكنت ألقى الفتاة فلا أحدثها عن عينيها وخديها وشفتيها ونهديها — وما أجمل نهود الفتيات فى باريس ! — وإنما كنت أسارع فأتحدث عن حدائق الحيوانات في القاهرة وأقول إنها أجمل ما يعرف العالم من حدائق الحيوان . فان اعترضت إحدى الفتيات وفضلت حدائق الحيوان فى لندن تحمست وقلت إن هذا مستحيل ، لأن مصر هى البلد الوحيد الذى يطيب فيه العيش لأنواع الحيوان !

وما كنت أكتفي بهذا ، بل كنت أخترع أسماء وهمية للباحثين والمفكرين ، فكنت أقول إن بلدنا هو الذى نبغ فيه فلان وهى أسماء تحلّي بها بعد ذلك بعض الناس !

وفى أثناء تلك الأحاديث الوهمية تجول عيناي فى أعطاف الفريسة الحسناء ، فان بدا لها أن تعترض على ما تقول عيناى ، أنكرت ماتقول عيناى : وهل كنت مسئولا عما تقوله عيناى ؟ وما هى لغة العيون ؟ وهل للعيون لغة ؟ إنْ هذا إلا اختلاق !

وما زلت أوغل فى المداهنة والنفاق حتى تقدمت إحدى الفتيات وقالت : ما أجمل عينيك يا مسيو مبارك ! فتكلفت الغضب وقلت : أنا أكره المزاح ! فطوقتنى بذراعيها وقالت : أنا أحب الشبان العقلاء ! فقلت : وأنا أحب المجانين من الفتيات ؟ وكانت لحظة ستنصب لها الموازين يوم يقوم الحساب !

* * *

وفى ظلال هذا الروح الطيب مضيت لعيادة ليلى ، وقد صممت على الخوض فى أحاديث لا تتصل بالحب . وما قيمة التجارب إن لم تنفع وأنا فى ديار الاغتراب ؟

دخلت على ليلى فى ليلة مطيرة غاب فيها القمر وغابت النجوم ، فتفضلت حرسها الله ومدت يديها الناعمتين لمعاونتى على دَرَج السلالم ، فشعرت كأن خيوطاً من نور تجذبنى إلى العلّية ، وقد تكلفت التعب والضعف لأرى كيف تجذبنى تلك الأنامل الرقاق . وكانت لحظة سحرية لا يعرفها إلا من أسدلت عليه الستائر فى ليلة قمراء بالقصر الذى يعرفه القلب فى الشارع رقم .. بالضاحية ... إحدى ضواحى القاهرة الفيحاء

رباه ! إن القاهرة نعمة من نعمك على عبادك ، فاجعلها عامرة أبد الآبدين ، واجعلها إلى يوم القيامة عروس الشعر والخيال ، بل احفظها واجعلها شقيقة الفردوس يوم يلقى المخلصون جزاء ما يعملون ! رباه ! إن القاهرة هى الشاهد على أن اللغة العربية خليقة بالسيطرة فى عالم العلم والمدنية . رباه ! إن القاهرة من أجمل ما خلقت من المدائن فاجعلها كنانتك واحفظها من السوء حتى أعيش فيها عيش السعداء ، وحتى يعيش فيها أبنائى وأحفادى وأحفاد أحفادى عيش النضرة والنعيم ، على وفاق وسلام مع جميع الأقطار العربية

* * *

كانت ليلى فى زينتها ، وكنت فى عقلى !

وكان فى نيتى أن أثير الجدل حول « قضية الأخلاق » التى اشتجرت فيها أقلام الخولى وعزام والزيات ؛ وكنت أنوى أن أقرر أن المنافقين يتجحون باسم الأخلاق ، فكيف لا ينجح بها الصادقون ؟ وكنت أحب أن أقول أيضاً إن الثورة على الأخلاق كالثورة على الدين ، فالذين يثورون على الدين لا يبغضونه من حيث جوهره ، وإنما يحاربون الأبالسة الذين يسترون سوآتهم بتكلف الغيرة على الدين . وكذلك يثور على الأخلاق من يؤذيهم أن يغار المنافقون على الأخلاق . وكان من شهوة النفس أن أعلن فى حضرة ليلى أن أهل البلادة يسترون تخلفهم بالأخلاق ، فاذا رأوا رجلا قوىّ القلب مُشرق العبقرية ، أسرعوا فاتهموه بضعف الأخلاق لينفض الناس من حوله ويخلو لهم الميدان . ومن أجل

هذا كان من النادر أن يمر بهذه الدنيا رجل عظيم بدون أن تطول فى تجريحه ألسنة المتخلفين والمنافقين . وهل سلم الأنبياء من ألسنة الناس ؟

كان فى نيتى أن أصول وأجول فى حضرة ليلى ، فأعظم لذة فى الدنيا أن يعذب لسانك ، وتقوى حجتك ، فى حضرة امرأة حسناء . والكلام فى هذا الموضوع يسهل علىّ بفضل ما أضعت من العمر فى دراسة علم النفس وعلم الأخلاق ، وبفضل ما ابتلانى الدهر من معاشرة أهل الرياء

ولكن ليلى ابتدرتنى وقالت :

هل قرأت العدد الأخير من مجلة الرسالة ؟

وما كادت شفتاها تفصحان عن هذا السؤال حتى كاد قلبى ينخلع ، فقد تذكرت أننى رجعت عن عزمتى فى طىّ هذه المذكرات وأرسلتها جميعاً إلى الزبات . وهل أخاف ليلى أكثر مما أخاف سعادة الأستاذ محمد العشماوى بك الذى أوصانى بالاعتصام بالعقل يوم سفرى إلى العراق ؟ وما وجه الخوف ؟ إن مذكراتى بريئة من العبث ، وأنا أعيش فى بغداد عيش النساك ، وإن لم يكن لى فضل فى هذا التنسك ، فإن الحفلة التى كرمنى بها أدباء بغداد جعلتنى ممن يشار إليهم بالبنان ، ولم يبق من ميادين الهزل غير تذكر الأحلام القديمة ، أحلام القاهرة وباريس

ثم تشجعت فقلت : ماذا فى مجلة الرسالة ؟

فقالت : إن الأستاذ سعيد العريان يتحداك

فبلمت ريقى ، وحمدت الله . وهل يؤذينى أن يتحدانى كاتب من الكتاب ؟ يرحم الله الأيام الماضية حين كان الأدباء يتهيبون المرور فى طريق ، وحين كانت مقالاتى فى جريدة البلاغ كالسيف المصلت على رقاب الكتاب والشعراء والمؤلفين . يرحم الله الأيام الماضية حين كان أعاظم الرجال يسرهم ويشرفهم أن أهجم عليهم فى جريدة البلاغ . ولكن وا أسفاه ! أنا اليوم أعيش فى قفصين من الفولاذ . وهل كان الدكتور طه حسين يمزح حين قال : تذكر يا صديقى أنك أصبحت موظفاً فى حكومتين ، وأن مركزك دقيق ؟

* * *

لقد قرأت كلمة الأديب العريان ، ولكن لا بد من التجاهل لتعيدها ليلى على مسمعى ، فإن الهجوم علىّ يعذب ويطيب حين أسمعه من ليلى . وهل كانت رخامة الصوت إلا عند ليلى ، ليلى التى زعموا أنها مريضة فى العراق ، مع أن فى صوتها من الحلاوة ما يهد رواسى الجبال ؟

وقرأت ليلى :

« ولقد سرنى والله أن تُعْنى وأنت فى العراق بدفع تهمة العقوق عن أدباء مصر ؛ وإنها لعاطفة وطنية نبيلة أعرف كل العرفان ما يدفعك إليها وأنت بعيد »

— أعيدى يا ليلى

— ولماذا ؟

— أعيدى يا ليلى ، ففى مصر إنسان يشهد بأنى أعرف معنى الوطنية ! وهل كنت فى حاجة إلى من يشهد لى بصدق الوطنية ؟ عشنا وشُفنا !

— ولكنه يتهمك بعد ذلك بمصانعة أهل العراق !

— أنا أصانع أهل العراق ؟ وهل صانعت أهل مصر حتى أصانع أهل العراق ؟ لقد جنت علىّ الشجاعة ما جنتْ فلم أتهيّب ولم أتوجع ، وتركت الجبناء يتمتعون بمناصب كنت بها أحق ، فكيف جاز لأديب مصرى أن يتهمنى بالمصانعة فى معاملة أهل العراق ؟

إسمعى يا ليلى . إن هذا الأديب نسى أن مجلة « الرسالة » لها فى العراق قراء يعدون بالألوف ، ونسى أن كلمته قد تؤذينى ، وهذا الأديب الطيب القلب نسى أيضاً أن أهل العراق لن ينتظروا شهادته فى عبقرية زكى مبارك ، ونسى كذلك أننى لا أحتاج إلى أستاذ يتفضل بها كاتب يجعل الرافعى إمام الأدباء . فأنا أعيش فى مصر والعراق بفضل الله وبفضل عزيمتى ، وإن كنت لا أنكر أن فى مصر إخواناً كراماً يجعلون سيرتى مسك الختام فى كل حديث

إسمعى يا ليلى . إن أدباء مصر لا يعرفون عواقب ما يكتبون . أليس من البلاء أن أنفق أوقات الفراغ فى الدفاع عن مصر والمصريين ؟ أليس من البلاء أن يكون من واجبى أن أتنقل فى الأندية والمجتمعات لأصحح الأغلاط التى ارتكبها الكتاب المصريون ؟ إن مصر ليس لها مطامع فى العراق ، ولكن ما الوجب لحرمان مصر من مودة أهل العراق ؟ إن العراقيين يرونا إخوانهم

أهلاً وسهلاً ! فبأى حق يستبيح ناس فى مصر أن يفوهوا بكلمات ينفر منها أدباء العراق ؟

إن مصر تنفق ألوف الدنانير لتؤسس صداقات ومودات فى الأقطار الأوروبية والأمريكية ، فكيف تنيب عنها أن تنفق الكلمات الطيبات لتؤيد ما يربطها من العلائق بالأقطار العربية ؟

هل يعلم أدباء مصر — ولا سيما أعدائى — أنى أدفع عنهم السوء فى العراق ؟

إسمعى يا ليلى . إن أهل بلدكم يقولون إن زكى مبارك لا يزال يحافظ على مصريته . وهذا حق ، ولكننى أتشبث بمصر فى سبيل اللغة العربية ، فاللغة العربية هى الرباط الوثيق الذى سيكون فى المستقبل أساس ما سيعرف الشرق العربى من قوة البنيان

* * *

وكنت وصلت إلى حد من التأثر انزعجت له ليلى . فقالت : هوّن عليك يا صديقى !

فنظرت إليها نظرة الطفل المكروب إلى أمه الرءوم ثم قلت : ليلى ، إنها سنة واحدة أقضيها فى العراق !

فقالت وهى تتنهد : ستبقى عندنا طول حياتك .

فأجبت : على شرط أن تعفونى من هفوات الكتاب المصريين الذين أحمل جرائدهم صباح مساء

فقالت ليلى : وعلى شرط أن تنسى مصر الجديدة والزمالك !

فقلت : ذلك إليك يا ليلى !

فصوبت إلى عينين عاتبتين ، فعرفت أنها تبغض التشبيب

ما أجمل ليلى حين تعتب بعينيها ! إن ليلى جميلة يا بنى آدم ، وإنها لخليقة بأن تنسينى من فى مصر الجديدة ومن فى الزمالك ، إن جاز لقلب مثل قلبى أن يعرف العقوق

— ليلى !

— نعم يا مولاى !

— ليلاى !

— لست ليلاك !

— معذرة يا ليلى ، فأنا طبيب جنى عليه الأدب . وهذه عبارة شعرية سبقت إلى اللسان

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أقول ... أريد أن أقول إنى سأعيش فى بلدكم سنة واحدة ، أعنى أننى سأفارقك بعد أشهر معدودات

— هذا وعيد ؟

— لن أعيش فى بلدكم إلا إذا عينتنى الحكومة المصرية واعظاً فى بغداد

— واعظ ؟ ما هذا الكلام ؟ هل جننت ؟

(وقد انتشيت من هـذه العبارة لأن المرأة الجميلة لا تصف الرجل بالجنون إلا إذا ارتفع بينه وبينها التكليف)

— ما جننت ، وإنما أقول إن المصريين والعراقيين يحتاجون إلى من يرعى العلائق بين البلدين فلا ينشر خبر فى جرائد العراق عن مصر ، ولا ينشر خبر فى جرائد مصر عن العراق ، إلا بعد أن يمر على رجل حكيم يفهم عواقب ما تنشر الجرائد والمجلات

— وأنت ذلك الرجل الحكيم ؟ آمنت بالله !

— إسمعى يا ليلى . إن المحررين فى الصحف يحتاجون إلى لجام من العقل والذوق

— دع هذا ، وحدثنى عما تعرف من أسرار ليلى المريضة فى لبنان

— تريدين (فلانة) التى قيل إنها كانت تحب الرافعى ؟

— نعم ! وهذه أهم نقطة تعنينى فى كلة الأديب العريان

— وأنا أريد أن أمن على مصر وأدباء مصر فأقول إنى قضيت فى بغداد سنة كسبت لوطنى فيها ألوفا من الأصدقاء

— أنت تمن على وطنك ، والمن على الوطن لا يليق بكرام الرجال

— وماذا أصنع إذا كان وطنى لا يعرف غير من يمنون عليه ؟ ! وهل يعرف وطنى أنى أكتب فى كل أسبوع أكثر من تسعين صفحة وأشتغل أكثر من سبع عشرة ساعة فى كل يوم ؟ هل يعرف وطنى أنى أهتم بالمصريين المقيمين فى العراق أكثر مما أهتم بنفسى ؟ هل يعرف وطنى أنى أزور كلية الحقوق مرتين فى كل يوم لأطمئن على صحة الدكاترة عزمى وفهمى وسيف؟

— ومن هؤلاء ؟

— هم أساتذة فى القانون لا فى الطب ، وهم من أبناء القرن التاسع عشر

« وكانت غلطة فظيعة ، فإنه لا ينبغى أن تعرف ليلى من